

## الفصل الثاني

### زيت القنديل وصدمة الحضارة

تعتبر رواية «قنديل أم هاشم» للكاتب الكبير الراحل يحيى حقي والتي تحولت إلى فيلم بنفس الاسم سنة ١٩٦٨م من إخراج كمال عطية، وقام بدور البطولة فيه الممثل القدير الراحل شكرى سرحان، من أفضل الأعمال التي ناقشت رؤية الشرقيين للغرب.

وقال يحيى حقي نفسه فى كتاب حكى فيه سيرته الذاتية بعنوان (أشجان عضو منتسب)، إنه أخذ اسم إسماعيل بطل الرواية من اسم صديق له يدعى إسماعيل كامل، كان آخر منصب شغله هو سفير مصر فى الهند، فقد كان يمثل - فى نظر يحيى حقي - محاولة المزوجة الحقة بين الشرق والغرب.

ويمضى قائلاً إن اسمه لا يكاد يذكر إلا ويذكر معه (قنديل أم هاشم) كأنه لم يكتب غيرها، وكان يضيق بذلك أحياناً، ولكن كثيرين حدّثوه عنها واعترفوا بعمق تأثيرها فى نفوسهم. ومنهم أديب يمنى قال له: (لقد أحسست أنك تصفنى حين أعود من القاهرة إلى اليمن). وقال له بائع كتب قديمة (مش القصة اللي فيها واد بياكل بفتيك فى أوربا وأهله بياكلوا طعمية فى مصر!!).

ويكشف يحيى حقي السر بقوله: (حين أحاول البحث عن سبب قوة تأثير قنديل أم هاشم لا أجد ما أقوله سوى أنها خرجت من قلبى مباشرة كالرصاصة، وربما لهذا السبب استقرت فى قلوب القراء بالطريقة نفسها).

والتبرير الذى يقدمه يحيى مقنع إلى حد كبير، فما خرج من القلب ذهب إلى القلب فيما يقول القدماء، والرواية التى خرجت من القلب مباشرة كالرصاص، مشحونة المعانى والدلالات، بالغة التكثيف الذى يقول الكثير من الدلالات بأقل القليل من الكلمات، لا بد أن تنجح فى أن تنقل إلى من يقرأها بعض ما شعر به الكاتب من احتدام وتوتر وتفجر وتوهج أثناء فعل الكتابة. ولكن المؤكد أن ما خرج من قلب يحيى حقى ما كان يخاطب كل هذه القلوب التى تأثرت بروايته، والعقول التى استجابت إليها، إلا لأنها لمست الأوتار الحساسة فى هذه القلوب والعقول. ويعتقد الناقد الكبير الدكتور جابر عصفور أن البعد الخاص بالعلاقة المتوترة بين الشرق والغرب ينطوى على سبب من الأسباب التى تجعل لرواية يحيى حقى جاذبيتها، خصوصا أن بطلها إسماعيل ينتسب إلى أصول زراعية هاجرت إلى القاهرة، وعاشت فى حى (السيدة زينب) لأنه الحى الذى يصل بين الأسرة الزراعية الأصل وجذورها، وذلك عن طريق صنف التجارة التى اختارها والد إسماعيل الذى نراه فى الرواية، وعن طريق الوافدين على السيدة (أم العواجن) من الذين يطلبون عونها فى قضاء الحاجات، قادمين إليها من الريف، ومن الأحياء الفقيرة للمدينة، جالبين معهم عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ولهجاتهم.

والنتيجة هى الجدارية التى يصنعها قلم الكاتب المقتر الذى عاش طفولته الدالة التى أعيد إنتاجها بما أكسب الرواية حميمية خاصة فى واقعيتها التى لا تتردد فى استخدام العامية بالرغم من (حنبلتها) الدالة فى استخدام تراكيب اللغة الفصحى وصياغاتها الأسلوبية.

هذه الواقعية الحميمة يشعر بها كل من يقرأ الرواية، ويكون على شيء من الألفة بالتاريخ الاجتماعي لسكان السيدة زينب، فالشيخ رجب - والد إسماعيل البطل - ترك قريته وقدم إلى القاهرة معه والده للتبرك بزيارة آل البيت، ودفعه أبوه - في الزيارة الأولى لمسجد السيدة زينب - ليهوى معهم على عتبة المسجد الرخامية يرشقها بقبلاته، فينظر إليهما (أولاد البلد) باسمين لسذاجة هؤلاء القرويين، ورائحة اللبن والطين والحلبة تفوح من ثيابهم. وتجذب (السيدة زينب) الأب إليها، فيستقر في القاهرة سعياً وراء الرزق، ويسكن بالقرب من حاميته.

### نظرة على الشرائح الدنيا

ويبدأ إسماعيل خطوات التعليم المدني في المدارس الأميرية تعيينه تربيته الدينية وأصله القروي، فيمتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه، مع حشمة وكبر وصبر. إن حرم التأنق لم تفتحه النظافة. وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدلعين) أولاد أفندية المدينة المبتلين بالعجمة وعجز البيان، فتعلقت به الأسرة، كما تتعلق أسر الطبقة الوسطى الصغيرة بأبنائها الذين يظهرون تفوقاً في التعليم، ويجسدون حلم الأسرة في الارتقاء الطبقي الذي ظل التعليم المدني وسيلته الأولى لدى أسر الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى المصرية. ويظهر هذا التعلق في توقير إسماعيل، وتدليله، وتخصيص أطيب الطعام والشراب له. إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب، وهو يتلو أوراده، إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش، ومشت الأم على أطراف أصابعها،

حتى فاطمة النبوية - بنت عم إسماعيل، اليتيمة أبا وأماً - تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها، وتسكن أمامه في جلستها صامتة، تسهر معه كأن درسه درسها، متطلعة بعينيها المريضتين المحمرتي الأجنان، وتظل الأسرة كلها محيطة بإسماعيل الذي يذاكر إلى أن يأوى إلى فراشه، وعندئذ فحسب، تشعر الأسرة بأن يومها انقضى، وتبدأ تفكر فيما يلزمه في الغد. كما لو كانت كل حياتها وقفا على توفير راحته، ودفعه إلى طريق النجاح، فهو أمل الأسرة في مستقبل آخر، ينتقل بها اجتماعياً وطبقياً وثقافياً.

وسنة بعد سنة ينجح إسماعيل، ويفوز بالأولوية، ويشارك الجيران بالفرحة.

ويقترح البعض على الشيخ رجب أن يذهب ابنه إلى أوروبا، ويقبل الأب الذي لا يزال يحلم بأن يرى ابنه طبيباً، مدرّكاً أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيهاً في الشهر، غير ما يلزم الابن في أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه من البرد. ويتوكل الأب على الله، وببركة أم العواجز، وضوء زيت القنديل الذي لا يفارق أسطر الرواية من أولها إلى آخرها. وينتقل إسماعيل إلى (بلاد برة).

### لقاء الشرق والغرب

كانت (قنديل أم هاشم) تعبيراً عن الآثار النفسية العاصفة، في وجدان المثقف العربي ووعيه، نتيجة لقاء الشرق بالغرب، وتفاعلات اللقاء داخل المثقف الذي لا بد أن ينقسم على نفسه، انقسامه على ما جاء منه، وما ذهب إليه، وما عاد إليه في الوقت نفسه.

وبالرغم من أن إشكال العلاقة بين الشرق والغرب، من حيث هو تجربة، واحد في كل الأعمال الإبداعية التي تقاربه، من حيث هو موضوع، فإن المعالجات المختلفة التي تبدو بها ملامح الإشكال مغايرة في كل حالة، وحسب كل عمل إبداعي يجسدها، ولكن الوحدة في البنائية للإشكال تفرض عناصر متكررة تظل ثابتة في كل عمل إبداعي من الأعمال الروائية التي تعالج مشكلة العلاقة بالآخر أو الصدام الحضارى بين الشرق والغرب. ويمكن أن أشير من هذه العناصر إلى اثنين أساسيين في دلالاتهما ووظائفهما البنائية داخل الأعمال الإبداعية.

العنصر الأول هو عنصر الرحلة التي هي انتقال في الزمان والمكان والوعى على السواء، والرحلة سفر، والسفر تحوّل وتغيّر، أو التحوّل والتغيّر يتم ما بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول في مستوى، كما يتم ما بين نقطة الوصول ونقطة العودة في مستوى ثان. وهناك، بالطبع، التناقض الواقع بين نقطة الابتداء في الرحلة، حيث التخلف المادى مقرون بالتخلف الفكرى في نقطة الابتداء في الرحلة، والتقدم المادى مقرون بالتقدم المعنوى في نقطة الوصول، فالمسافة بينهما مسافة بين متعادين، أو بين شاطئين لا يلتقيان، أولهما لا يعرف تخلفه إلا بواسطة مَنْ يقوم بتمثيله في الرحلة، ويرى واقع هذا التخلف في مرآة الآخر، أو في مرآة العالم الجديد الذى ينتقل إليه ويصيبه بالصدمة والدهشة والحيرة، فإرضاً عليه أن يختار - على نحو شعورى - ما بين الضفة التي جاء منها، والتي أصبحت مقرونة بالتخلف. والضفة التي وصل إليها والتي أصبحت مقرونة بالتقدم. ولذلك تغدو العودة في الرحلة نقيضاً للذهاب، فهي الوعى مضافاً إليه العلم المادى وقيم التحضّر التي

تجعل من العائد غريباً في موطنه، معترباً عن عاداته البالية وقيم تخلّفه التي أصبح يراها على نحو مفارق، احتجاجي، أو عدواني، رافضاً في كل الأحوال بقاء الأوضاع على ما هي عليه قبل الرحلة.

أما العنصر الثاني، فهو التقابلات الحديّة المقترنة بالرحلة نفسها، أي بحركتها بين نقيضين لا يلتقيان مادياً، لكنهما يمكن أن يلتقيا معنوياً أو فكرياً، شريطة أن يجذب الطرف الأقوى إليه الطرف الأضعف، فيستوعبه، أو يسهم في تحوّل على مستويات كثيرة. والتحوّل هنا يتم على المستوى الرمزي الذي جعل من حضارة الضفة الأخرى للغرب متمثلة في امرأة، ومن حضارة الأنا للشرق متمثلة في رجل. والمعنى الرمزي للمرأة قرين الغواية التي تجذب إليها الذكر، فتخرجه من عالمه الساكن الجامد الذي كان يتوقع فيه إلى عالم آخر أكثر تقدماً وحركة وحيوية. ولذلك يكثف التضاد بين الأنثى والذكر التقابلات الأساسية الموجودة في إشكال العلاقة بين الشرق والغرب. فالرحلة إلى الغرب مقرونة دائماً بالحركة بين متقابلين على مستوى المكان والزمان والقيمة. وتتصاعد هذه الحركة مع الحضور الرمزي للمرأة الذي هو نوع من الغواية التي تجذب بها مباحج الغرب المرتحل من الشرق. ولا تخلو هذه الغواية الرمزية من المعنى الجنسي الذي يتحوّل إلى تمثيل لمبدأ الرغبة، أو شوق الواصل الذي لا يتحقق تجسيدا للمبدأ نفسه.

### طائر من الغرب

وقد تحدث توفيق الحكيم - في (عصفور من الشرق) و(رسائل زهرة العمر على السواء) - عن هذه المباحج بطريقته التي أحالت الغرب

إلى كون رومانتيكي مثالي، تتجسد مباحجه في المرأة التي أحبها محسن، والتي لم يجد أفضل ما يهديه إليها سوى طائر ينقل إليها على نحو رمزي مشاعره مع الزهور التي تحيط بشرفتها. وحتى عندما يعود محسن (قناع الحكيم) إلى بلده، بعد اكتمال شعائر الرحلة، فإنه يظل معلقًا بالصفة الأخرى من البحر المتوسط، حيث باريس (فتريئة العالم... الواجبة البلورية التي تعرض خلفها عبقرية الدنيا). ويؤدي به هذا التعلق إلى أن يعيش حياتين في وطنه الذي أصبح يرفضه، ويتمنى لو استبدل به نقيضه الذي لا يكف عن الحلم به، فيعيش في الظاهر كما يعيش الناس في بلده مصر. أما في الباطن فيعيش في أوروبا حيث آلهته الجديدة وعقائده ومثله العليا، الأمر الذي يؤدي إلى الصراع بين الحياة الظاهرة والحياة الباطنة، الصراع الذي يسعى فيه كل طرف إلى أن يسود، وذلك بالقدر الذي تسعى به ثوابت الواقع إلى الدفاع عن ثباتها، ومهاجمة الخطر الذي يهدد الثبات بالتغيير، والسكون بالحركة، خصوصًا في تلَهّف الذات التي غَوَتْ إلى أن تستبدل بمظاهر التخلف علامات التقدم.

### رؤية جديدة

هذا الصراع هو الذي عاشه الدكتور إسماعيل - بطل (قنديل أم هاشم) - بعد عودته من الغرب، إنجلترا، طبيبًا مشهورًا له بالكفاءة في العيون، وذلك بعد أن قضى سبع سنوات (لاحظ دلالة الرقم!) تبدل فيها حاله، كما لو كان صعد من الأرض السابعة إلى السماء السابعة، فوصل إلى ما لم يكن يدور بخلده، أو يتخيله. ولم يعد ذلك الفتى الذي كان

عليه وقار الشيوخ حين صعد سلم الباخرة، بطيء الحركة، غرير النظرة، أكرش، ساذجًا، كل ما فيه ينبئ أنه قروى مستوحش فى المدينة. وليس أدل على ذلك من (القبقاب) الذى حمله فى أمتعته، فقد سمع من الشيخ رجب أن الوضوء فى أوربا متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية فى البيوت، ولم تخل الأمتعة من السراويل الطويلة ذات التكة المحلاوى، وسلة ملأى بالكعك و(المنين) من عمل أمه وفاطمة النبوية. وما إن تصل الباخرة إلى غايتها حتى تبدأ رحلة التحوّل المقترنة بالعبور من الضفة الجنوبية للبحر، حيث الشرق، إلى الضفة الشمالية، حيث الغرب. ويتراكم التحوّل عبر سبع سنوات.

وتعود الباخرة من الغرب إلى الشرق، لكن بعد أن تغير إسماعيل تغييرًا جذريًا. فيهبط من سلم الباخرة قفزًا، مرفوع الرأس، متألق الوجه، سمهري القامة، سريع الخطو، واثق النظرة كل ما فيه ينبئ بالتفوق العلمى الذى حققه، والتغير الحضارى الذى اكتسبه، والتبدّل العميق الذى أصاب شخصيته، كان عفاً فغوى، راقص الفتيات. لكن هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدة وطرافة، فقد تعلم كيف يتذوّق جمال الطبيعة، ويتمتع بغروب الشمس ويتفوّق فى علوم الطب، وبخاصة طب العين. وكانت (مارى) التى تكثفت فيها صفات الغرب دليله ومرشده، علمته أن يكون مشجبه هو ذاته، وأن يتمرد دائمًا على القيود، وأن ينبذ العواطف الشرقية المزدولة لأنها غير علمية وغير منتجة.

ويصل إلى داره فيروعه الفقر الذى بدت عليه، لم يكن يعلم أن أباه انتكست موارده المالية فى سفره، لكنه ظل حريصًا على أن يكمل ابنه

تعليمه ، وظل إسماعيل يلهو فى اسكتلندة مع رفيقته ، يأكل البفتيك ،  
وأبوه قعيد الدار ، عشاؤه طعمية أو فجل. وتأتى فاطمة ، كى تقطر لها  
أمها من زيت قنديل أم هاشم فى عينيها ، فقد تعودوا على بركة الزيت ،  
ونشأ هو شخصياً على هذه البركة. ولكن وقد حدث له ما حدث من  
تحول ، فإنه يقفز من مكانه كالمسوع ، ويوقف يد أمه ، ويحل الرباط حول  
عيني فاطمة ، فوجد رمداً أتلف الجفنين وأضرّ بالمقلة ، لو وجد العلاج  
المهدئ المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى ،  
فيصرخ فى أمه ، ويقذف بزجاجة الزيت وبركة أم هاشم على السواء.  
وتدهش الأسرة التى ظلت طوال عمرها (تكالها على الله وعلى أم  
هاشم). وتصد صدمة لا تقل عن صدمته. ويسأل الأب غاضباً: أهذا  
ما تعلمه ابنه فى بلاد بره؟ الكفر؟! أما هو فيمضى فى ثورته ، وقد  
انتابه غضب مجنون عارم. ويخرج إلى الميدان فلا يرى فى المصريين  
المحتشدين فيه سوى جنس سمج ثرثار أقرع أمرد. عار حاف ، بوله دم ،  
وبرازه ديدان. يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على  
وجهه ، ومصر؟ قطعة (مبرطشة) من الطين. جمود يقتل كل تقدم ، وعدم  
لا معنى فيه للزمن. وينقلت من الزحام ، هائجاً ، متوجهاً إلى الجامع ،  
ويدخله ، فيجد المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة.  
والقنديل يرسل شعاعه إعلاناً قائماً للخرافة والجهل.

وحول المقام أناس كالحشب المسندة ، وقفوا مشلولين متشبثين  
بالأسوار. ويفقد وعيه ، ويصيبه حال من الجنون العارم ، فيهوى بعصاه  
على القنديل ، فيتحطم ، ويتناثر زجاجه ، وتهجم عليه الجموع ، وتضربه

الجماهير، ويدوسونه بالأقدام، ويسيل الدم من رأسه على وجهه، وتتمزق ثيابه، ولا ينقذه من الموت، سوى الشيخ درديرى الذى يستخلصه من غضب الناس، ويحمله إلى الدار، ويضعونه على الفراش وتجتمع الأسرة حوله تبكى صوابه المفقود.

### صراع مع المرض

وعندما يفيق إسماعيل من مرضه العصبى، وتبرأ جراحه، يخرج إلى الأصدقاء والزملاء، ويستعين بأحدث الآلات، ويأخذ فى علاج فاطمة التى عالج فى أوربا أكثر من مائة حالة مثلها، فلم يخنه التوفيق فى واحدة. فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضاً، وسلمت الفتاة إليه نفسها، لا يهتمها مرضها بقدر ما يهتمها أن تكون بين يديه موضع عنايته. ولكنها لا تشفى، بل تستيقظ ذات صباح وهى تفتح عينيها ولا ترى، فقد انطفأ آخر بصيص تتعزى عليه، ويجن إسماعيل، ويهرب إلى الميدان، ويظل هارباً، إلى أن يأتى رمضان، وتحل ليلة القدر. ويرى إسماعيل النور الذى غاب عنه دهرًا، فيفتح له روحه وقلبه، مدركًا أن لا علم بلا إيمان، وأنه فشل لأن فاطمة لم تؤمن به، وإنما كان إيمانها ببركة السيدة زينب وحدها وكرمها.

ويدخل إسماعيل المقام، ممارسًا شعيرة مضادة لشعيرة دخوله التدميرى السابقة، فقد أضاء النور قلبه، كما أضاء النور قلب نعيمة العاصية التى تاب الله عليها بعد عصيان سبع سنوات، سبع سنوات موازية للسنوات التى قضاها إسماعيل فى الخارج، والتى بدت - فى المقام - كأنها سبع سنوات من العصيان الموازى. ويرأف به الشيخ

درديرى، ويستجيب إلى طلبه فى أن يمنحه شيئاً من زيت القنديل، خصوصاً أن الليلة ليلة القدر وليلة الحضرة. ويخرج إسماعيل من المقام، مشحوناً بالنور الذى انطوى عليه، والذى أحال ظلمة روحه إلى ضوء، فيرى كل شيء مختلفاً. ويعود إليه وعي ابن الحى الذى لا بد أن يقف إلى جوار أهله، محتفياً بهم كما هم، وبادئاً من واقعهم، غير منكر لما ظلوا يعيشون عليه من معتقدات، أخذ هو يستعيد معنى الإيمان بها.

ويبدأ فى علاج فاطمة من جديد، مستمسكاً من علمه الجديد بروحه وأساسه، معتمداً على الله، فبارك الله فى علمه ويديه. واستجابت فاطمة التى جاء لها بزيت القنديل، بركة أم هاشم، وينجح العلاج الذى يجمع ما بين العلم والإيمان، وتتحوّل فاطمة نفسها على يديه، بعد أن أخذ يعلمها كيف تأكل وتشرب، وتجلس وتلبس. ويقوده شفاء فاطمة إلى شفاء غيرها، فاتحاً عيادة للفقراء من الفلاحين الذين أراد أن يعود إليهم معيناً، منتمياً، كأنه القطرة التى تعود إلى أصلها فى البحر، ويتزوج بفاطمة، وينجب منها البنين والبنات، ويعيش معها ومرضاه فى (تبات ونبات).

### نهاية صادمه

هكذا، تنتهى حكاية الدكتور إسماعيل فى (قنديل أم هاشم). نهاية لا تخلو من الصدمة، أو من إحباط التوقع، خصوصاً لقارئ قرأ قبل ذلك (عصفور من الشرق) وهام مع رسائل محسن إلى أندريه التى جمعها توفيق الحكيم فى (زهرة العمر). ويبدو الأمر - من هذا المنظور - كما لو كان يحيى حقى يخلق شخصية هى على النقيض فى التكوين وفى

المسار. وبالفعل، فإن إسماعيل نقيض محسن في النشأة. الأول ابن المدينة الذي ارتحل عنها إلى باريس فوجد فيها النور الذي ظل يحلم بأن ينقل بعضاً منه إلى موطنه المظلم الذي عاش فيه حالماً بباريس (المحبوبة). وظلت رسائله إلى أندريه تطلب المدد الروحي من النور في صحراء وطنه، كما ظل على يقينه أن (النور يأتيني من الشاطئ الآخر... المائج بأضواء الحياة الفكرية). ومحسن رومانتيكي حتى النخاع، نراه في المشهد الأول من (عصفور من الشرق) يمضى حالماً تحت المطر، ممسوساً بالفنون التي غذت روحه، لا يعرف سوى الوصل الروحي بالمحبوبة التي يفنى فيها.

وحتى عندما يتمرد محسن على الجانب الظالم من علاقات رأس المال في باريس، نتيجة صداقته بالعامل أندريه والمهاجر الروسي، فإنه يظل مؤمناً بأن نور الحضارة الباريسية يغلب ظلمتها. وإشعاعه لا يد أن يبسط نفسه على وطنه المتخلف، ففي ذلك السبيل الوحيد إلى التقدم، واكتساب (مباهج الآداب العصرية) التي أشار إليها الشيخ رفاة الطهطاوى. وإسماعيل نقيض محسن من هذا المنظور، فهو لا يخلو من ملامح واقعية، تباعد بينه والنموذج الرومانتيكي الذي يتجسد فيه محسن. ولذلك نراه أول ما نراه في طريقه إلى ميدان السيدة زينب، ساعياً بين (ما شا الله) بائعة الطعمية والبصارة والأسطى حسن الحلاق، والشحاذين الذين يحيطون بأبواب المقام، وهدير أصوات الباعة، والشابة التي تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية، صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ، وبائع الدقة الأعمى الذي لا يبيع شيئاً إلا إذا أقرأه الشارى

السلام. فيقرئه وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء. وإسماعيل يتحرك وسط هذا المشهد المزحوم بتفاصيل تبدو معادية تماماً، أو نقيضاً حاداً للرومانتيكية، وينسرب في هذه التفاصيل عطر يشي بحضور مقام السيدة التي نشأ الجميع في حراستها - بعد الله.

ويتحول فشل التحدى الأول لإسماعيل إلى كارثة تهزّه من الأعماق، وتضع كل ما تعلمه من الغرب موضع المساءلة، المساءلة التي تمتد عبر معاناة روحية تنتهي باكتشاف النور الذي كان موجوداً منذ البداية، فى الداخل لا الخارج، والذي كان التخلّى الكامل عنه تحويلاً للعلم المكتسب إلى طائر بجناح واحد. وينتهى الصراع لا برفض الواقع الفعلى كما فعل محسن توفيق الحكيم، وإنما باكتشاف العنصر الروحى الخلاق فى هذا الواقع الذى يرمز إليه الحضور المضى للقنديل، الحضور الذى يمتد إلى الزيت الذى يؤمن ببركاته من يقبلون عليه.

ويعود إسماعيل إلى توازنه عندما يستعيد نوره الداخلى، فيلجأ إلى النور الخارجى للقنديل بوصفه معادلاً للقيم الروحية الدينية العميقة التى تغمره، والتى توازى ما يغمر الميدان كله من شهيق وزفير عميقين يجوبان المكان والزمان كغمرة الضوء التى تتأرجح فوق القبة، كأنها شارة العلم الذى أصبح قرين الإيمان الروحى.

\* \* \*